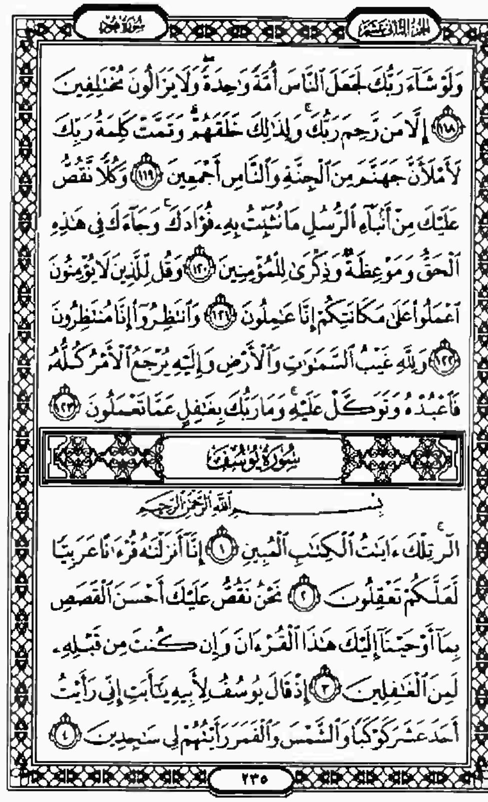

معانى الكلمات :

معانى المفردات :

أمة واحدة : أهل دين واحد .

مكانتكم : حالتكم .

الر : حروف للتحدى والإعجاز .

نقص عليك : على الرسول ﷺ .

رأيت : فى المنام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد تمام الاعتقاد أن الأمر كله لله عز وجل ، لذا فهو أحق بالعبادة والتوكل عليه .

٢ ـ أن نقف على الدروس والعبر من القصص القرآنى ، فإنه نزل بحكمة .

٣ ـ أن نأخذ الحيطة والحذر فى الأمور الهامة أخذاً بالأسباب .

المحتوى التربوى :

ويأتى التعقيب الأخير فى سورة هود عن اختلاف البشر إلى الهدى والضلال ، وسنة الله المستقيمة فى اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك ، ولو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد ، ولكن شاء أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهات حياته ، وهكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته فى أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقى جزاء منهجه الذى اختار .

والخاتمة الأخيرة . خطاب للرسول ﷺ عن حكمة سوق القصص إليه فى خاصة نفسه للمؤمنين ، فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ،

وليخل بينهم وبين ما ينتظرهم فى غيب الله ، ثم ليعبد الله ، وليتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون .

ومن بعد ذلك كله الأمر لله . أمر الرسول والمؤمنين ، وأمر هذا الخلق كله ما كان فى غيبه وما سيكون ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ ﴾ فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ فهو الولى وحده والنصير ، وهو العليم بما تعملون من خير وشر ، ولن يضيع جزاء أحد .

وهكذا تختم السورة التى بدئت بالتوحيد فى العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله فى النهاية ، بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده والرجعة إليه فى نهاية المطاف ، وذلك بعد طول التطواف فى آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون .

فى قوله : ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٌ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المؤمنة التى تتحرك به ، لتحقيق مدلوله فى عالم الواقع لا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية ، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البيانى .

(سورة يوسف ١-٤)

تبدأ السورة بهذه الأحرف وما من جنسها وهى قريبة للناس متداولة بينهم هى هى بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الحرف العربية المعروفة ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ وتدركون أن الذى يصنع الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أبداً أن يكون بشراً ، فلابد عقلاً أن يكون القرآن وحياً، والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة .

ويقول صاحب الظلال : ولما كان جسّم هذه الصورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب على وجه التخصيص ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ .

فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص ـ وهو أحسن القصص ـ وهو جزء من القرآن الموحى ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ فقد كنت أحد الأميين فى قومك ، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التى جاء بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق .

ويبدو هنا أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى فى سورة البقرة ، ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾ ، ونلاحظ أن المقدمة ذكرت أن الله عز وجل يقص فى هذا القرآن أحسن القصص ، وكيف أن محمداً ﷺ كان قبل الوحى غافلاً ، فلم يكن متعلماً ولا مقبلاً على التعلم ،

وقد وصف القرآن فى هذه المقدمة بالبيان ، فأن يكون كتاب هذا شأنه فى مثل هذا البيان ، وفى مثل هذا الحسن ، وفى اختيار القصة الهادفة ، وأن يكون منزلاً على مثل محمد ﷺ فى أميته ، وعدم تعلمه ، إنَّ هذا كله لا يمكن أن يكون ، لولا أن هذا القرآن من عند الله ، فالسورة إذن تعالج موضوع الريب والشك بشكل مختلف عما عالجته سور أخرى .

وتبدأ أحداث القصة ، لنرى يوسف الصبى يقص رؤياه على أبيه ؛ وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من روئ الصبية ولا الغلمان ؛ وأقرب ما يراه غلام ـ حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به ـ أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر فى حجره أن بين يديه يطولها ، ولكن يوسف رآها ساجدة له ، متمثلة فى صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً ، والسياق يروى فى صيغة الإيضاح المؤكدة عنه ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ .

ثم يعيد لفظ رأى ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ . لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام ، لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك ، ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتين منها ، أما تمامه فلا يظهر إلا فى نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب ، ولهذا كما سياتى نصحه بألا يقص رؤياه على أخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير ـ غير الشقيق ـ فيجد الشيطان من هذا ثغرة فى نفوسهم ، فتمتلئ نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمراً يسوؤه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ ثبوت الرؤيا شرعاً ومشروعية تعبيرها .

٢ ـ مشروعية الحذر والأخذ بالحيطة فى الأمور الهامة .

٣ ـ بيان فائدة القصص القرآنى وهى أمور منها :

أ ـ تثبيت قلب النبى ﷺ .

ب ـ إيجاد مواعظ وعبر المؤمنين .

جـ ـ تقرير نبوة الرسول ﷺ .

د ـ التذكر الدائم المستمر لما نزل بالأقوام السابقة .

٤ ـ علم الغيب لله وحده لا يعلمه غيره .

٥ ـ وجوب عبادة الله تعالى والتوكل عليه .

٦ ـ رؤيا الأنبياء حق ، والرؤيا للمؤمن من المبشرات وهى نوع من الوحى .

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ
يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ
فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤
٢٣٦

معانى الكلمات :

فيكيدوا لك كيداً : فيحتالوا فى هلاكك حسداً .

مبين : ظاهر العداوة .

يجتبيك : يختارك .

غيابة الجب : ما غاب وأظلم من قعر البئر

السيارة : المسافرين .

يرتع : يأكل ما لذ وطاب .

غافلون : مشغولون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتجنب الحسد ؛ لأنه أصل الشرور والكوارث البشرية .

٢ ـ أن نقف على الدروس المستفادة من الآيات .

٣ ـ تقرير قاعدة : أخف الضررين أولى بالأخذ والاتباع .

المحتوى التربوى :

يتواصل السياق فى عرض مشاهد القصص القرآنى ، فبعد أن قص يوسف القصة على أبيه ، أحس يعقوب أن ابنه سيكون له شأن عظيم ، ويتجه خاطره إلى أن هذا الشأن فى وادى الدين والصلاح والمعرفة ؛ بحكم جو النبوة الذى يعيش فيه ، وما يعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون . فتوقع أن يكون يوسف هو الذى يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة فى بيت إبراهيم فقال له : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ .

واتجاه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له ، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق هذا طبيعى ، ولكن الذى يستوقف النظر قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ .. يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « والتأويل هو معرفة المآل ، فما الأحاديث ؟ أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذى تنتهى إليه ، منذ أوائلها . وهو إلهام من الله لذوى البصائر المدركة النافذة ، وجاء التعقيب : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . مناسباً لهذا فى جو الحكمة والتعليم ؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل فى حياة يوسف فيما بعد ؟

كلاهما جائز ، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب ، على أية حال لقد رأى يوسف رؤياه هذه ، وسنرى فيما بعد ما يكون تأويل الرؤيا .

فى قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ **يقول صاحب المنار** بتصرف: فى قصة يوسف أنواع من الدلائل على قدرة الله وحكمته فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه فى غيابة الجب ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز أمانته لما آمنه على بيته ، ولو لم تراوده امرأة العزيز لما ظهرت أمانته ولو لم يتحبب فى سعيها لما وضع فى السجن ، ولو لم يوضع فى السجن لما عرف الملك صدقه فى رؤياه وعفته ، ولو لم يعلم الساقى تعبيره للرؤيا ما أنقذ مصر وأبويه وإخوته من الجوع .

ويعقب هذا المشهد السابق مشهدٌ آخر : مشهد إخوة يوسف يتآمرون ولقد كان قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقلب عن الآيات ويسأل ويهتم ، وتحكى الآيات عن إخوة يوسف يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم ـ أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم ، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه . فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له .

ويغلى الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع، وتتضخم فى حسهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة فى إزهاق روح غلام برىء لا يملك دفعاً عن نفسه ، وهو لهم أخ ، وهم أبناء نبى ـ وإن لم يكونوا هم أنبياء ـ يهون هذا ، وتضخم فى أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب . حتى توازى القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله .

ويتدبرون الأمر ويقررون إلقاء يوسف فى غياهب الجب بعد التداول وينشدون التوبة بعد ذلك ، ويعلق صاحب الظلال ـ قائلاً على قصدهم هذا : « والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا ، إنما تكون التوبة من الخطيئة التى يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر ؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التى تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ؛ فليست بالتوبة ، إنما هى تبرير لارتكاب الجريمة ، بزينة الشيطان !

وها هم أولا عند أبيهم ، يراودونه فى اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة . وهاهم أولاء يخادعون أباهم ، ويمكرون به وبيوسف فقالوا له ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ أى محبون له كل خير مشفقون عليه أن يمسه أدنى سوء .

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ أى يرتع فى البادية يأكل الفواكه ويشرب الألبان ويأكل اللحوم ، ويلعب بما نلعب به من السباق والمناضلة ، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ من كل ما قد يضره أو يسوء إليه . فأجابهم عليه السلام قائلاً : ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ ﴾ أى إنه ليوقعنى فى الحزن وآلامه ذهابكم به ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ فى رتعكم ولعبكم فأجابوه قائلين : ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ لئن غلبنا الذئب ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإننا لخاسرون كل شىء ، فلا نصلح لشىء أبداً !

وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج ، ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضى مشيئته!

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحسد سبب لكثير من الكوارث البشرية .

٢ ـ ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون .

٣ ـ يجب على الوالدين أن يسويا بين أبنائهم جميعاً فى المعاملة قدر الاستطاعة ، وألا يفضلا أحداً عن الآخر ، حتى لا تتولد فى نفوس الباقين الغيرة البغضية ، وتحل الكراهية بينهم محل الحب والمودة .

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ
دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

٢٣٧

معانى الكلمات :

أجمعوا : عزموا .

متاعنا : ثيابنا .

سولت : زينت .

واردهم : من يتقدم الرفقة ليستقى لهم .

أسروه : أخفاه الوارد عن بقية الرفقة .

أكرمى مثواه : أحسنى معاملته .

غالب على أمره : لا يقهره شىء ولا يدفعه عنه أحد .

بلغ أشده : بلغ رشده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد أن لطف الله ورحمته وعنايته تكون لأهل طاعته وأصفيائه من خلقه .

٢ ـ أن نتحلى بالصبر الجميل فهو نعم عاقبة الأمور .

٣ ـ أن نستعين بالله عز وجل على كل ما أهمنّا ، فإنه نعم المعين .

المحتوى التربوى :

وتمضى الآيات تميط اللثام عن الجريمة النكراء لإخوة يوسف ، والله سبحانه يُلقى فى روع الغلام أنها محنة وتنتهى ، وأنه سيعيش وسيذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو، ويواجه يوسف محنته فى غيابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله فى روعه ويطمئنه ؛ حتى يأذن الله بالفرج ، ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع .

يقول **صاحب الظلال** : « لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التى يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية

الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها . فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا فى الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذى حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هذا التسرع جاؤوا على قميصه بدم كذب لطخوه به فى غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب .

قال الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « قالوا أمرين كاذبين :

الأمر الأول : أنهم ذهبوا يتسابقون ، وتركوه عند متاعهم .

الأمر الثانى : أنهم قالوا : إن الذئب أكله ، وما أكله ذئب ، إنما أكله الحسد والحقد الدفين .

وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مكيدة ما ، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرًا منكرا ، وأنه سيصبر متحملا متجملا مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب .

وتعود الآيات سريعًا إلى يوسف فى الجب ، لقد كان الجب على طريق القوافل ، التى تبحث عن الماء فى مظانه ، فى الآبار وفى مثل هذا الجب الذى ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون فى بعض الأحيان جافاً كذلك ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ وأرسلوا من يرد لهم الماء ، ويجد يوسف ، ويأسروه بضاعة ، وعزموا على بيعه رقيقاً ، ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار ثم باعوه بثمن قليل ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ ، لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه ، وقبل أن نسدل الستار على هذا المشهد من حياة يوسف عليه السلام نقف على بعض اللطائف والفوائد فى الآيات السابقة يقول القاسمى فى محاسن التأويل : قال المهايمى : إن الجاه يدعو إلى الحسد ، كالمال ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب ، وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود ، بمن يراعيه ، إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلاً من الممكور به ، وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلاً ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلاً يفعل الخيانة ، وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان وإن كان نبيّاً يُخلق أولاً على طبع البشرية وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا يُغنى من القدر .

قيل للهدهد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمى البصير .

وفى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونة الله تعالى .

وقال المهايمى : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب ، وأنه ينتظر للشدة ، وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن فى خاطره، وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهونه، وأن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة وبالعكس .

ونتابع مع السياق ، وقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع بيع الرقيق ، ولكن الذى اشتراه توسم فيه الخير ـ والخير يتوسم فى الوجوه الصباح ، وبخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح ـ فإذا هو يوصى به امرأته خيراً ، وهنا يبدأ أول خيط فى تحقيق الرؤيا .

ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده ، وقد أوتى حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التى لا يقف لها إلا من رحم الله ، إنها محنة التعرض للغواية فى جو القصور ، وفى جو ما يسمونه الطبقة الراقية ، وما يغشاها من استهتار وفجور .. ويخرج يوسف منها سليماً معافى فى خلقه ودينه ، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها .

لعل من لطائف إتيان قصة يوسف مرة واحدة سرد المحن التى تعرض لها يوسف ﷺ ـ وهى عديدة ـ ليستبين لنا أن أكثر الناس ـ ابتلاء هم الأنبياء فالأمثل ثم الأمثل ، ولكن هذه المحن عندما يزيل ظلامها بريق الأمل ، وتنكشف يسعد صاحبها ولكنّ يوسف الصديق الذى وهبه الله المنحة بعد المحنة فتولى خزائن الأرض ليقى البلاد المحنة التى ألمت بها وبالأمم المجاورة ـ موطن إخوته وأبيه .

ولنر فى تلك القصة جوانب السمو فى الخلق النبوى عند يوسف ﷺ ؛ إذا بعد حلول النعمة طلب من الله الوفاة ، وتلك خصائص النبوة وسجاياها فى أن تفضل ما عند الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لطف الله ورحمته وعنايته بأهل طاعته وأصفيائه من خلقه .

٢ ـ لا يغرنك بكاء المتظلم ، فرب ظالم وهو باك ، كما فعل إخوة يوسف .

٣ ـ آفة الكذب النسيان ، فقد وضع إخوة يوسف دم شاة على قميص يوسف ، ونسوا أن يمزقوه أو يخرقوه مما دل على كذبهم .

٤ ـ من غالب الله غُلب ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

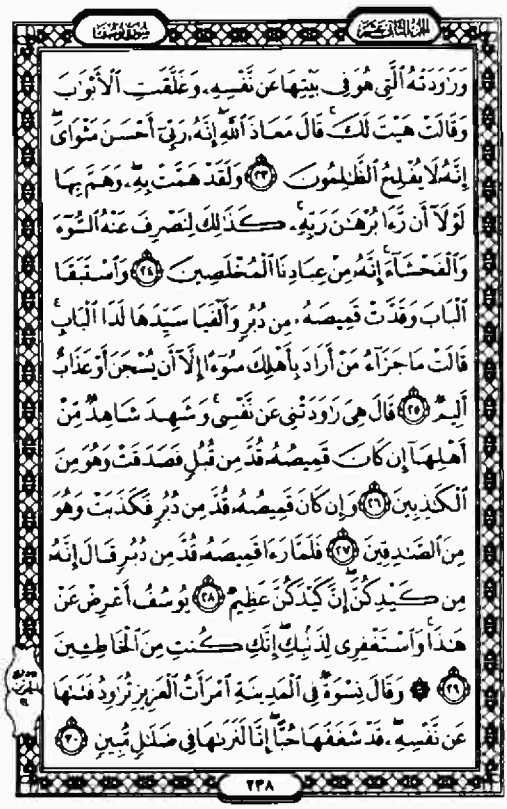
وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا
ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
٢٣٨

معانى الكلمات :

راودته : تحايلت لمواقعته إياها .

هيت لك : أقبل ، أسرع .

معاذ الله : أعوذ بالله .

همّ بها : هم الطباع البشرية مع عصمة الله له من الخطأ .

استبقا الباب : تسابقا إليه يريد الخروج وهى تمنعه .

قدت قميصه : قطعته وشقته .

ألفيا سيدها : وجدا زوجها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن بعصمة الله لأنبيائه ، وحفظه لهم من ارتكاب الفواحش .

٢ ـ أن نحذر خلوة غير المحارم فهى من خطوات الشيطان التى تفضى إلى انتهاك المحارم .

٣ ـ ألا ننساق وراء الإسرائيليات فى تفسيرها لقصة سيدنا يوسف .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن المحنة الثانية فى حياة يوسف عليه السلام ، وهى أشد وأعمق من المحنة الأولى ، تجيئه وقد أوتى صحة الحكم وأوتى العلم ـ رحمة من الله ـ ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذى سجله الله له فى قرآنه .

ويتحدث **صاحب الظلال** عن هذه المحنة قائلاً : « إن التجربة التى مر بها يوسف ـ لم تكن فقط فى مواجهة المراودة فى هذا المشهد الذى يصوره السياق ، إنما كانت فى حياة يوسف فترة مراهقته كلها فى جو هذا القصر ، مع هذه المرأة وهى بين سن الثلاثين وسن الأربعين ، مع جو القصر ، وجو البيئة التى يصورها قول الزوج ، أما الحالة التى وجد فيها امرأته مع يوسف :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

وحتى لا نخوض فى التفاسير والآراء المتباينة فى قصة المراودة ورد الفعل نقول : إن النص صريح وقاطع فى أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبى ، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود ، فلم تكن هناك استجابة فى أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق البواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذى يتجمل القرآن فى حكايته وروايته : « وقالت : هيت لك » .

وكانت نهاية الموقف النجاة بعد الاعتصام بالله فى النهاية عقبة النجاة مع عرض لحظات الضعف بينهما ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً .

فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ يقول **صاحب الظلال** : « وهو نهاية موقف طويل من الإغراء بعدما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم ، وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة ، ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة غالبًا ؛ لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضًا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة ، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك » .

قال الزمخشرى فى الكشاف : « كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية قلت : لو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته » .

ويمضى السياق يستعرض الأحداث فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق وهى عدت خلفه لتمسك به ، وهى ما تزال فى هياجها الحيوانى ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ نتيجة جذبها له لترده عن الباب ، وتقع المفاجأة : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذى يهتف به المنظر المريب . إنها تتهم الفتى ، ولكنها امرأة تعشق ، فهى تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون . ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ويجهر يوسف بالحقيقة فى وجه الاتهام الباطل ، وهنا يذكر السياق أن أحد أهلها حسم بشهادته هذا النزاع .

وتعليقاً على عصمة الأنبياء يقول أبو السعود فى محاسن التأويل : « وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبُعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرى » .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد ـ الذى حسم فى النزاع ـ أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قده من قُبل ، على الرغم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد الفضيحة وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثَمَّ قدم أمارة على صدقها ، على أمارة صدقه فى الذكر ، إزاحة للتهمة ، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها .

وبعد ذلك فقد تبين لسيدها حسب الشهادة المبينة على منطق الواقع أنها هى التى راودت ، وهى التى دبرت الاتهام . . وهنا تبدو لنا صورة من الطبقة الراقية فى الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هى اليوم شاخصة .. رخاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع، وهذا هم المهم كله . وهكذا إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .. فهى اللباقة فى مواجهة الحادث الذى يثير الدم فى العروق.والتلطف فى مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله فيما يشبه الثناء.. والتفاته إلى يوسف البرئ : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ فأهمله ولا تُعِرْه اهتماماً ولا تتحدث به، وهذا هو المهم .. محافظة على الظواهر ! وعطفة إلى المرأة التى راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها . ومضت الأمور فى طريقها . فهكذا تمضى الأمور فى القصور، ولكن للقصور جدراناً ، وفيها خدم وحشم . وما يجرى فى القصور لا يمكن أن يظل مستوراً وبخاصة فى هذه الأوساط ، الذى ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن ، ولأول مرة نعرف أن المرأة هى امرأة العزيز ، وأن الرجل الذى اشتراه من مصر وهو عزيز مصر ـ أى كبير وزرائها ـ ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر فى المدينة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عصمة الله ـ تعالى ـ لأنبيائه ، وحفظه إياهم من ارتكاب الفواحش والذنوب.

٢ ـ حرم الإسلام الخلوة بالنساء الأجنبيات وغير المحرمات ، منعاً للفواحش وصيانة للأسرة وحفظاً للكرامة والشرف .

٣ ـ مقابلة الإحسان بالإحسان ، وعدم الخيانة لمن أكرمنا وائتمننا على ماله أو عرضه .

٤ ـ الحذر من الشيطان ووساوسه ، ومن النفس الأمارة بالسوء وشهواتها المحرمة .

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
٢٣٩

معانى الكلمات :

أكبرنه : دهشن برؤية جماله .

حاش لله : تنزيهاً لله عن العجز .

فاستعصم : فامتنع امتناعاً شديداً .

أصْبُ إليهن : أميل إلى إجابتهن .

بدا : ظهر .

أعصر خمراً : أعصر عنباً يتحول لخمر أسقيه للملك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما كان من قبل نساء المدينة وما فعلته امرأة العزيز معهن .

٢ ـ أن نحذر من فتنة الجمال ؛ إذ هى أفظع فتنة يمر بها إنسان .

٣ ـ أن نستشعر همّ الدعوة إلى دين الله وإن كنا فى حالك الشدة .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات ما كان من قبل نساء المدينة ، وما فعلته امرأة العزيز معهن عندما سمعت بتشنيعهن عليها ، فقد أقامت لهن مأدبة فى قصرها ، وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة العليا ، فهن اللواتى يدعين إلى المآدب فى القصور ، وهن اللواتى يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا ، فأعدت لهن هذا المتكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها فى الطعام .

وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف فأمرته أن يخرج عليهن ليرينه فيعجبن برؤيته ، فيذهلن عن أنفسهن ويقطعن أيديهن بدل الفاكهة التى يقطعنها للأكل ، وبذلك تكون قد دفعت عن نفسها المعرة الملامة ، وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة

المفاجئة ، ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ وهى كلمة تنزيه ، تقال فى هذا الموضع ، تعبيراً عن الدهشة بصنع الله ، ونفين عن يوسف عليه السلام البشرية ، وأثبتن له الملكية لجماله .

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها ، فقالت فى استعلاء وعلى غير حياء ـ أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها ، والتى تفخر عليهن بأن هذا فى متناول يدها ، وإن كان استعصى قياده مرة ، فهى تملك هذا القياد مرة أخرى ، قالت : فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب ، ولقد بهرنى مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام ، تريد أن تقول : إنه عانى الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها ، وبالغ فى الامتناع والتحفظ ، ولا يزال مستزيداً منهما ، ثم قالت تتوعده إذا لم يفعل ما تطلب من إعطائها مرادها منه بالسجن ، وسيكون من المذلين المهانين مع السراق والسفاك فى السجن ، ومن لم يرض بمثلى فى الحرير على السرير أميراً ، فليكن فى السجن على الحصير حسيراً .

فلما سمع يوسف تهديدها ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ قال أبو السعود : « هذا فزع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى ، جريا على سنن الأنبياء والصالحين ، فى قصر نيل الخير إنه والنجاة من الشرور على جناب الله عز وجل ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن ؛ بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت ، لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة ، وفى نفسه داعية تدعوه إلى هواهن فأجاب الله دعاءه ، وعصمه عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك ، والله تعالى يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء ، وهكذا اجتاز يوسف عليه السلام محنته الثانية ، وظهر لهم من المصلحة بعد ما رؤوا الشواهد على براءته ، ليسجننه إلى زمان ؛ لإبداء عذر الحال ، وإرخاء الستر على القيل والقال ، وللإيهام أنهم سجنوه لأنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه لذلك .

وتأتى المحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة فى حياة يوسف ، وهى محنة السجن بعد ظهور البراءة والسجن للبرىء المظلوم أقسى ، وإن كان فى طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى » .

ودخل يوسف عليه السلام السجن ، ودخل معه السجن بتقدير الله الخفى الذى يعبر عنه جاهلوه بالمصادفة والاتفاق : فتيان مملوكان تبين فيما بعد أنهما من فتيان ملك مصر .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « هبطت الفتنة فى نفوس النسوة ، ولكن صداها كان يتردد بين الناس ، وخصوصا النساء ، وقد آمن الملك بحقيقتين : عفة يوسف ، وإغواء امرأته ، وانضم من كن يلمنها ، وتشايع الخبر فى المدينة ، فرأوا أن من حسن السياسة أن يسجن يوسف ليبعد عامل الاستهواء ، ولينس الناس هذه السيرة ...

وكان تأكيد السجن ؛ لأنه لم يكن منطقيا أن يسجن وهو البرىء ، ولكن لأنهم وجدوه إطفاء لهذه الشائعة التى هزت مقومات المجتمع، وأشاعت القول بالفاحشة .. عن أكبر سيدة فى مصر،

فكان التأكيد بالسجن ليقاوم منطق البراءة الذى يوجب الثناء وطيب الجزاء ، يدل العقاب ، والإلقاء فى غياهب السجن » .

ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف فى السجن ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه ، فوجه إليه الأنظار ووجعله موضع ثقة المسجونين ، وفيهم الكثيرون مما ساقهم سوء الطالع مثله فى القصر أو الحاشية،فغضب عليهم فى نزوة عارضة، فألقى بهم فى السجن ، يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف فى السجن وإلى جواره فتيان أنسا إليه ، فكل منهما قص عليه رؤيا رآها ، ويطلب كلاهما إليه تعبيرها، لما يتوسمانه فيه الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك ؛ فالساقى قد رأى أنه يعصر خمراً ـ يعنى عنبًا ـ والآخر هو الخباز ، رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً والطير تأكل منه .

قال صاحب الظلال : « وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة ، فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين ، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولون خصائص الربوبية ويصبحون فراعين ، ويبدأ يوسف مع صاحبى السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ؛ لأن ربه علمه علما لدنيا خاصا جزاء على تجرده لعبادته وحده ، وتخلصه من عبادة الشركاء ، وهو وآباؤه من قبله ، وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه » .

ويبدو فى طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس ، وكياسته وتنقله فى الحديث فى رفق لطيف ، وهى سمة هذه الشخصية البارزة فى القصة بطولها .

ويأتى التوكيد الموحى بالثقة بأن الرجل على علم لدنى ، يرى به مقبل الرزق وينبئ بما يرى ، وهذا فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف ـ وهى كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤى ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ تجىء فى اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ، ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربه ، وليعلل بها هذا العلم اللدنى الذى سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه .

وهذا العلم أوحى الله به إلى يوسف وعلل هذا العلم فقال : إنى رفضت واجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ اللجوء إلى الله فى الشدائد ، والضراعة إليه عند الحاجة أدعى لاستجابة الدعاء .

٢ ـ عظمة بلاء الأنبياء وما أصابهم من شدائد ، وكل إنسان يبتليه الله على قدر دينه .

٣ ـ الإيمان بالله ، والإيمان بدار الجزاء أعظم أركان الإيمان

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ
﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
٢٤٠

معانى الكلمات :

صاحبى السجن : ساكنى السجن .

أرباب : آلهة .

سلطان : حجة وبرهان .

القيم : المستقيم ، أو الثابت بالبراهين .

ربه : سيده .

تستفتيان : تسألان عنه .

عجاف : مهازيل ضعاف جداً .

تعبرون : تعلمون تفسيرها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مقومات العقيدة التى قالها يوسف عليه السلام فى هذه الآيات .

٢ ـ أن نؤمن بأن الحكم لا يكون إلا لله .

٣ ـ أن نتعلم فن الدعوة من يوسف عليه السلام .

المحتوى التربوى :

يمضى يوسف عليه السلام بعد بيان معالم الكفر ليبين معالم ملة الإيمان التى يتبعها هو وآباؤه ، فهى ملة التوحيد الخالص الذى لا يشرك بالله شيئاً قط ، والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين ، وهو فضل فى متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه ، ففى فطرتهم أصوله وهواتفه ، وفى الوجود من حولهم موحياته ودلائله ، وفى رسالات الرسل بيانه وتقريره ، ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه .

ثم يتوغل فى قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما .

ويرسم يوسف ﷺ بكلمات قليلة كل معالم هذا الدين ، وكل مقدمات هذه العقيدة ، إنه يتخذ منهما صاحبين ، ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة ، وهو لا يدعوهما إليه دعوة مباشرة ، إنما يعرضها قضية موضوعية .

ويبدأ بسؤال يهجم على الفطرة فى أعماقها ، **يقول صاحب الظلال** : « إن الفطرة تعرف لها إلها واحداً ففيم إذن تعدد الأرباب ؟ إن الذى يستحق أن يكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار ، ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر فى الوجود فيجب تبعاً لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر فى حياة الناس ، وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد ، وأنه هو القاهر ، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا ، إن الرب لابد أن يكون إلها يملك أمر هذا الكون ويسيره ، ولا ينبغى أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربا للناس يقهرهم بحكمه ، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره ، والله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء .. » .

ثم يخطو يوسف ﷺ خطوة أخرى فى تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية ، فما هذه الأرباب سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله ـ ليست من الربوبية فى شيء ، وليس لها من حقيقة الربوبية شيء .

وهنا يضرب يوسف ﷺ ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين : لمن ينبغى أن يكون السلطان ، لمن ينبغى أن يكون الحكم ، لمن ينبغى أن تكون الطاعة والعبادة ؟

فالحكم لا يكون إلا لله ، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ؛ إذْ الحاكمية من خصائص الألوهية ، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ، سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو حزب ، أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعاً فى صورة منظمة عالمية ، ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفراً بواحا .

ويوسف ﷺ يجعل اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم ، فالعبادة ـ أى الدينونة ـ لا تقوم إذا كان الحكم لغيره ، ويقرر يوسف ﷺ أن اختصاص الله سبحانه بالحكم تحقيق لاختصاصه بالعبادة ـ هو وحده الدين القيم ، فلا دين قيما سوى هذا الدين ، ولكن أكثر الناس يجهلون العلم بهذا ، والذى لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد فيه .

إن صاحب العقيدة الصحيحة إذا تمكنت منه ، وخالطت لحمه ودمه ووجدانه لا تمنعه المحن من أن ينشر دعوته ، فالسجن وهو ابتلاء شديد لم يعفه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة والأوضاع الفاسدة .

لقد شهد السجن انطلاق الدعوة ، وظهور نعمة الله فى تعبير للرؤى ، وتأكيد لبراءته .

يقول صاحب المنار : « ومن العجيب أن هذه الحقيقة التى بينها القرآن فى مئات من الآيات البينات تتلى فى السور الكثيرة بالأساليب البليغة ، صار بجهلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن ؛ فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه فيتوجهون إلى غير الله ، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل الله دعوا إليه جميع الأمم ، فهم يزعمون أن البشر نشؤوا على الأديان الوثنية حتى كان أول من دعاهم إلى التوحيد إبراهيم عليه السلام من زهاء أربعة آلاف سنة،والقرآن حجة عليهم بتصريحه أن الله تعالى أرسل فى جميع الأمم رسلا دعوهم إلى التوحيد».

وإلى هنا يبلغ يوسف ما يريد من الدرس الذى ألقاه ، ثم يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس، ليزيدهما ثقة فى قوله كله وتعلقا به ، ولم يعين من هو صاحب البشرى ، ومن هو صاحب المصير السيئ تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء ، ولكنه أكد لهما الأمر واثقاً من العلم الذى وهبه الله له ، وقضى الأمر وهو كائن كما قضاه الله .

وقال يوسف عليه السلام للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل وهو الساقى ؛ اذكر حالى وصفتى ، وعلمى بالرؤيا ، وما جرى علىّ ، عند الملك سيدك عسى أن يخلصنى مما ظلمت به ، وشغله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك ، فمكث يوسف عليه السلام فى السجن بضع سنين .

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام برحمته تعالى ، وما هيأه من الأسباب : رأى ملك مصر رؤيا ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ﴿ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءه وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك .

والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث : رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبى السجن ، ورؤيا الملك وطلب تأويلها فى كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله فى مصر وخارج مصر ، وأن الهبة اللدنية التى وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الخضوع لله وحده والدينونة لله وحده .

٢ ـ يجب أن يختار الداعية الوقت المناسب لدعوته ، وأن يكون المدعوون على حالة تؤهلهم لقبول الدعوة .

٣ ـ السعى فى الأسباب مطلوب إسلامياً ، ولا ينافى التوكل على الله .

قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى
بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ
ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾
٢٤١

معانى الكلمات :

أضغاث أحلام : تخاليطها وأباطيلها .

ادَّكر بعد أمة : تذكر بعد مدة طويلة .

دأبا : دائبين مستمرين .

فذروه : فاتركوه .

تحصنون : تخبئونه من البذور للزراعة .

يغاث الناس : ينزل المطر فتخصب أراضيهم .

يعصرون : ما يمكن عصره كالزيتون .

حصحص الحق : ظهر الحق وانكشف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على عجز الملأ ، وتفسير يوسف عليه السلام للرؤيا .

٢ ـ أن نتعرف على تبرئة يوسف عليه السلام .

٣ ـ أن نعلم أن الله جل وعلا جاعل لكل ضيق مخرجاً ، وأن من يتق الله يجعل له من أمره يسرا .

المحتوى التربوى :

طلب الملك تأويل رؤياه ، فعجز الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية فى إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم ، وصرف الحديث عنه ، فقالوا : إنها أخلاط أحلام مضطربة ، وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل ، أو أنها أحلام باطلة ولا تأويل لها ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة .

وهنا تذكر أحد صاحبيه فى السجن الذى نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه ، وذكر يوسف فى دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب ، هنا تذكر الرجل الذى أوّل له رؤياه ورؤيا

صاحبه ، فتحقق التأويل ، فقال للملك والذين جمعهم لذلك : أنا أخبركم بأمر هذه الرؤيا ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى يوسف الصديق إلى السجن ، فبعثوا فجاءه فقال : يا يوسف أيها الصديق ، وذكر المنام الذى رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام ، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى فى نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال : يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين ؛ لأنها تثير الأرض التى تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر .

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين ، فقال : مهما استغللتم فى هذه السبع ـ السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله ؛ ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلاً لا تسرفوا فيه ؛ لتنتفعوا فى السبع الشداد ، وهن السبع السنين المُحْل التى تعقب هذه السبع متواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السمان ؛ لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمعوه فى سنى الخصب ، وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء ، إلا قليلاً مما يحفظونه ويصونونه من التهامها .

ثم بشرهم بعد الجدب بعام رخاء يعقبهم بعد ذلك بالغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم ، من زيت ونحوه وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً .

وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك ، فهو إذن من العلم اللدنى الذى علمه الله يوسف ، فبشر به الساقى ليبشر الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخىّ رغيد .

وينتقل السياق فجأة لنسمع رغبة الملك فى رؤية يوسف وأمره فى أن يأتوه به ، ونجد يوسف يرد على رسول الملك الذى لا نعرف : إن كان هو الساقى الذى جاءه أول مرة ، أو رسولا تنفيذيا مكلفا بمثل هذا الشأن ، نجد يوسف السجين الذى طال عليه السجن لا يستعجل الخروج حتى تحقق قضيته ، ويتبين الحق واضحاً فى موقفه ، وتعلن براءته على الأشهاد من الوشايات والدسائس والغمز فى الظلام .

يقول صاحب الظلال : « لقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب فى قلبه السكينة والثقة والطمأنينة ، فلم يعد معجلاً ولا عجولا ، إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح فى الفارق بين الموقفين : الموقف الذى يقول يوسف فيه للفتى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، والموقف الذى يقول له فيه : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ والفارق بين الموقفين بعيد » .

وقال الفخر الرازى : واعلم أن الذى فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل ، وبيانه من وجوه :

الأول : « إنه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة ، فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة ...

الثانى : إن الإنسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة إذا طلبه الملك ، وأمر بإخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج وعرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات ، وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتانا .

الثالث : عن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ؛ إذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفاً أن يذكر ما سبق .

الرابع : .. كان غرضه عليه السلام من ذلك ألا يبقى فى قلبه التفات إلى رد الملك وقبوله ، وكان هذا العمل جارياً مجرى التلافى لما صدر من التوسل إليه فى قوله : ﴿ ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ليظهر أيضاً هذا المعنى لذلك الشرابى ، فإنه هو الذى كان واسطة فى الحالتين معا » .

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك يستجوبهن ، فقال مخاطبا لهن كلهن وهو يريد امرأة العزيز : ما شأنكن وخبركن إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ فقال النسوة جوابا للملك : حاشا لله أن يكون يوسف متهماً ، والله ما علمنا عليه من سوء .

وهنا تتقدم امرأة العزيز لتبرئ ساحته وتقول : إنه لصادق فى قوله من أمر مراودتى له ، وإنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى .

٢ ـ أهمية الادخار فى وقت اليسر والرخاء لأوقات العسر والشدة .

٣ ـ مكافأة المحسنين ، وتبرئة المظلومين ، وتقدير العلماء وأصحاب الفضل ، وشرعية دفاع المتهم عن نفسه ، والتقى الأمين لا يضيع الله سعيه .

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

٢٤٢

معانى الكلمات :

لأمارة : لكثيرة الأمر .

مكين : ذو مكانة رفيعة .

يتبوأ منها : يتخذ منها منزلا .

جهزهم بجهازهم : أعطاهم ما هم فى حاجة إليه .

سنراود عنه أباه : سنجتهد فى طلبه منه .

بضاعتهم : ثمن ما اشتروه من الطعام .

رحالهم: أوعيتهم التى فيها الطعام وغيره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على طلب يوسف الولاية من سلطة كافرة .

٢ ـ أن نعلم كيفية تمكين الله ليوسف عليه السلام فى الأرض ، والدلالات الإيمانية على ذلك .

٣ ـ أن نعرف ما جرى من أحداث بين يوسف عليه السلام وإخوته .

المحتوى التربوى :

ما زال السياق يتحدث عن امرأة العزيز وهى فى حضرة الملك تعترف بما فعلته فى حق يوسف عليه السلام وتقول : إنها لا تبرئ نفسها مع ذلك من الخيانة ، فإنها قد خانته حين فر منها ، وقالت ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾ وأودعته السجن ، وتريد الاعتذار مما كان منها، إن كل نفس : ﴿ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ إلا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف واستغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت .

وتبدأ مرحلة التمكين والرخاء والعز ، فلقد تبينت للملك براءة يوسف وتبين له معها علمه فى تفسير الرؤيا ، وحكمته فى طلب تمحيص أمر النسوة ، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه وهو لا يتهافت على لقاء الملك وأى ملك ؟ ملك مصر ، ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم فى

سمعته ، المسجون ظلماً ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه .

كل أولئك أوقع فى نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه ، فطلبه الملك ليستخلصه لنفسه ويجعله بمكان المستشار والنجىّ والصديق .

يقول صاحب الظلال : « فيا ليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مطلقو السراح ـ فيضعوا النير فى أعناقهم بأيديهم ، ويتهافتوا على نظرة رضا وكلمة ثناء ، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء ، يا ليت رجالا من هؤلاء يقرؤون هذا القرآن ، ويقرؤون قصة يوسف ؛ ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح ـ حتى المادى ـ أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء » .

فلما كلمه تحقق له صدق ما توسمه ، فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفى أمان ، وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفى حماه ، وطالب يوسف عليه السلام بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء فى الأزمة القادمة التى أول بها رؤيا الملك،خيراً مما ينهض بها أحد فى البلاد، وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلاداً من الخراب .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ، ويكون تبعا له ، وتحت أمره وطاعته ؟ قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم ، وعن قتادة : هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه ، وإذا علم النبى أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به ، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع » .

ويقول صاحب الظلال : « وهنا تعرض شبهة : أليس فى قول يوسف عليه السلام : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أمران محظوران فى النظام الإسلامى :

أولهما : طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول ﷺ : « إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله (أو حرص عليه » . (متفق عليه) .

وثانيهما : تزكية النفس ، وهى محظورة بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؟ ولا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقررت فى النظام الإسلامى الذى تقرر على عهد محمد رسول الله ﷺ، وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام ، والمسائل التنظيمية فى هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة الثابتة فى كل رسالة وعلى يد كل رسول .

وقد نشأ الفقه فى مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع فى مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية ، كذلك لم يكن الفقه الإسلامى هو الذى أنشأ المجتمع المسلم ، إنما كان

المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذى أنشأ الفقه الإسلامى».

ومكن الله ليوسف فى أرض مصر يتصرف فيها كيف يشاء ، ويتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ، وأعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد بعد صبره على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، وما ادخره الله لنبيه يوسف ﷺ فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل .

وباشر يوسف ﷺ الوزارة بمصر ، ومضت السبع السنين المخصبة ، ثم تلتها سنين الجدب ، وعم القحط بلاد مصر بكاملها ووصل إلى بلاد كنعان ، وكان فى جملة من ورد للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم لهم فى ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب ﷺ عنده بنيامين شقيق يوسف ﷺ ، فلما دخلوا على يوسف عرفهم حين نظر إليهم ، وهم لا يعرفونه ؛ لأنهم فارقوه وهو صغير فباعوه للسيارة .

ولما وفاهم كيلهم ، وحمل لكل واحد بعيره بعد أن أكرمهم غاية الإكرام ، ولا شك أنه قد سألهم عن أحوالهم فأخبروه عن أبيهم وأولاده بالتفصيل ، فقال : ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ، وقد رأيتم أننى أوفى الكيل للمشترين ، فأوفيكم نصيبكم حين يجىء معكم،ورأيتم أننى أكرم النزلاء فلا خوف عليه ، بل سيلقى منى الإكرام المعهود . قالوا : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه .

أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التى حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التى جاؤوا بها .

ويبدو أنهم فى دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير معهم ، فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم ، وهم يعدونه بحفظه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

٢ ـ ضرورة حسن اختيار ولى الأمر لكل إنسان للمكان المناسب له ، والإفادة من خبرة وكفاءة ذوى الخبرة والكفاءة .

٣ ـ أهمية الادخار فى حياة الأفراد.

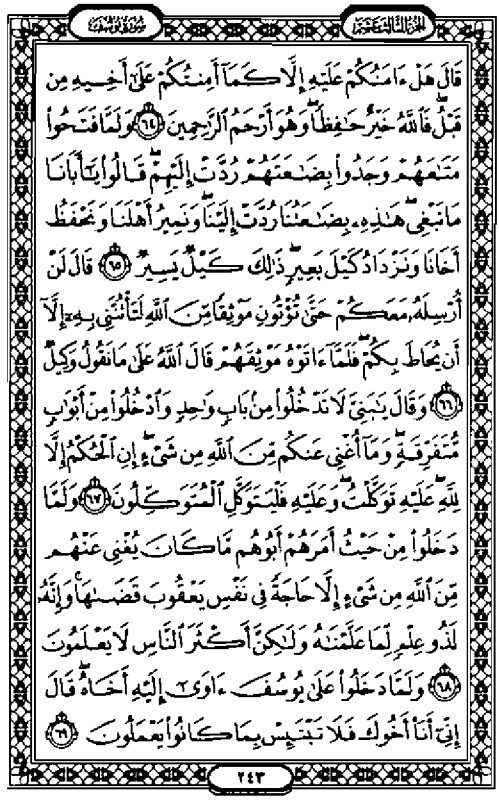
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
٢٤٣

معانى الكلمات :

أخيه : يوسف .

متاعهم : طعامهم أو رحالهم .

ما نبغى : ما نطلب الإحسان بعد ذلك .

نمير أهلنا:نجلب لأهلنا الطعام من مصر .

موثقا : عهدًا مؤكدا باليمين .

يحاط بكم : تهلكوا جميعاً أو تغلبوا .

آوى : ضم .

تبتئس : تحزن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم حسن التدبير من يوسف عليه السلام حتى يأتى بأخيه .

٢ ـ أن نعلم مدى ثقة يعقوب فى ربه عز وجل .

٣ ـ أن نعرف أن أخذ الحيطة أمر مطلوب .

المحتوى التربوى :

يبين السياق رد يعقوب على أولاده عندما رجعوا من مصر ، وطلبوا منه أن يرسل معهم بنيامين فى المرة القادمة ، وإذا به يجهر بما أثاره وعدهم بحفظه من شجون فقال : فخلونى من وعودكم وخلونى من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدى والرحمة بى ، وبعد الاستقرار من المشوار ، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال ، فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التى ذهبوا يشترون بها بعد أن أوفى لهم الكيل ، وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، واتخذوا من رد بضاعتهم إليهم دليلا على أنهم غير باغين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين .

ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية فى الحصول على الطعام ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم ، ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم ، وهو ميسور لهم حين يرافقهم .

ويبدو من قولهم : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل واحد وسق بعير ـ وهو معروف ـ ولم يكن يبيع كل مشتر ما يريد ، وكان ذلك من الحكمة فى سنوات الجدب ، كى يظل هناك قوت للجميع : واستسلم الرجل على كره ، ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقى شرطاً ، أى لتقسمن لى بالله قسما يربطكم أن تردوا علىّ ولدى، إلا إذا غلبتم على أمركم غلبا لا حيلة لكم فيه ، ولا تجدى مدافعتكم عنه إذا أخذت المسالك كلها عليكم ، فأقسموا زيادة فى التوكيد والتذكير .

وقال لهم أبوهم : ألا يدخلوا من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة ؛ لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يعس للحاكم فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد وزى متحد على بلد هم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد ، وكانت المدن وقتئذ مبوبّة لا ينفذ إليها من أبوابها ، وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع فى التنبه واتباع البصر . وقيل : ينهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، والله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ، فهذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، وحكم الله القدرى يمضى فى الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار ، وإلى جانبه حكم الله الذى ينفذه الناس عن رضا منهم واختيار ، وهو الحكم الشرعى المتمثل فى الأوامر والنواهى وهذا كذلك لا يكون إلا لله شأنه شأن حكمه القدرى الذى عنته هذه الآية .

وسار الركب ونفذوا وصية أبيهم ، فيم كانت هذه الوصية ؟ ثم قال لهم أبوهم : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ ؟

قال صاحب الظلال : « تضرب الروايات والتفاسير فى هذا وتبدىء وتعيد بلا ضرورة ، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآنى الحكيم ، فلو كان السياق يجب أن يكشف عن السبب لقال ـ ولكنه قال فقط : ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ فينبغى أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ، احتفاظاً بالجو الذى أراده ، والجو يوحى بأنه كان يخشى شيئاً عليهم ، ويرى فى دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشىء مع تسليمه بأنه لا يغنى عنهم من الله من شىء ، فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه ، إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة فى نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة ، فقد علمه الله هذا فتعلم : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال الإمام الفخر الرازى : « اعلم بأن الإنسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ، ومأمور أيضاً بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى ، وأن الحذر لا ينجى من القدر ، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة والأغذية الضارة ، ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان ؛ ثم إنه مع ذلك ينبغى أن يكون حازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ، ولا يحصل فى الوجود إلا ما أراده الله ، فقوله ﷺ : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ فهو إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ، وقوله : ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى .

وقول القائل : كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين ؟ فهذا السؤال غير مختص به ، وذلك لأنه لا نزاع فى أنه لابد من إقامة الطاعات ، والاحتراز عن المعاصى والسيئات مع أننا نعتقد أن السعيد من سُعِد فى بطن أمه ، وأن الشقى من شقى فكذا هاهنا ، نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول فى النار ، مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى .

فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام ، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر ، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة ، وبعد ذلك السعى البليغ والجهد الجهيد ، فإنه يعلم أن كل ما يدخل فى الوجود فلابد أن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته .

ويخبر السياق بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه بنيامين . إما على الطعام ، أو فى المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، ولا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرص الآباء على الأبناء ، وحسن رعايتهم ونصحهم بما يضمن لهم الأمن والسلامة والسعادة .

٢ ـ الإنسان مأمور بأن يراعى الأسباب ويأخذ بها .

٣ ـ الحذر لا ينجى من القدر ، والحكم لله وحده .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾
٢٤٤

معانى الكلمات :

السقاية : إناء من ذهب للشرب اتخذ للكيل .

أذن مؤذن : نادى مناد .

العير : القافلة فيها الأحمال .

صواع الملك : مكيال وهو السقاية .

زعيم : كفيل أوديه إليه .

فهو جزاؤه : السارق جزاء المسروق .

كدنا ليوسف : دبرنا لتحصيل غرضه .

مكانه : بدلا منه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حيلة يوسف عليه السلام فى أخذه أخاه إليه .

٢ ـ أن نعلم مدلول الدين فى المفهوم الإسلامى .

٣ ـ أن نتعرف على كوامن الحق عند إخوة يوسف عليه السلام .

المحتوى التربوى :

يطوى السياق فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ليعرض مشهد الرحيل الأخير ، فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درسا أو دروسا ضرورية لهم ، وضرورية للناس فى كل زمان ومكان .

ومن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك ـ وهى عادة من الذهب ـ وقيل : إنها كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى فى كيل القمح ، لندرته وعزته فى تلك المجاعة ، ثم ينادى منادٍ بصوت مرتفع ، فى صيغة إعلان عام ، وهم منصرفون : ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذى يتهمهم بالسرقة ـ

وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب ويسألون ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ .

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال ، أو الحراس ومنهم هذا الذى أذاع بالإعلان : ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعا ، وهى مكافأة ثمينة فى هذه الظروف ، فهى حمل بعير من القمح العزيز : ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ أى كفيل أن أؤديه لمن جاء به ، فتعجبوا أن يرمى أمثالهم بمثل هذه التهمة ، مع ما دل عليه حالهم من أمانتهم ؛ إذ ردوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم كما تذكر التوراة الحالية ، لذلك قالوا : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا أنه ليس من سجايانا الإفساد والسرقة ، وما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع .

وهنا ينكشف طرف التدبير الذى ألهمه الله يوسف فقد كان المتبع فى دين يعقوب : أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا فى مقابل ما يسرق ، ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة ، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق ، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه ، وقرروا جزاء السارق أخذه رقيقاً وهذا جزاء الظالمين بالسرقة لا غير .

وكان هذا الحوار على مرأى ومسمع من يوسف ، فأمر بالتفتيش ، وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه ، كى لا يثير شبهة فى نتيجة التفتيش ، وأخرج الصواع من رحل أخيه ؛ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاما لهم بما يعتقدونه .

ويخبر الله سبحانه بأن هذا ما دبره ليوسف عليه السلام ، فلم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر ، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة ، وليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى إلى الله عز وجل .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا النص يحدد مدلول كلمة « الدين » ـ فى هذا الموضع تحديداً دقيقاً .. إنه يعنى : نظام الملك وشرعه ، ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه فى جزاء سرقته ، إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه، وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم، فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك فى رحل أخيه ، وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها الدين .

إن مدلول « دين الله » قد هزل وانكمش حتى صار لا يعنى فى تصور الجماهير . إلا الاعتقاد والشعائر . ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لقد كان يعنى دائماً : الدينونة لله وحده بالتزام شرعه ، ورفض ما يشرعه غيره ، وإفراده سبحانه بالألوهية فى الأرض ، مثل إفراده بالألوهية فى السماء ، وتقرير ربوبيته وحده للناس : أى حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره ، وكان مفرق الطريق دائماً من هم فى دين الله ومن هم فى دين الملك ، أن الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه ، أو يشركون فيدينون لله فى الاعتقاد والشعائر ، ويدينون لغير الله فى النظام والشرائع ، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن بدهيات العقيدة الإسلامية تماما » .

ونعود إلى إخوة يوسف وقد حرك الحرج الذى يلاقونه كوامن حقدهم على أخى يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتنصلون من نقيصة السرقة ، وينفونها عنهم ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب ، فقالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ، وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا فى تعلات وحكايات وأساطير ، كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم فى يوسف ، وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التى تحرجهم ، وتبرؤوا من يوسف وأخيه السارق ، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه ، لقد قذفوا بها يوسف وأخاه .

وأسر يوسف هذه الفعلة وحفظها فى نفسه، ولم يبد تأثره منها، وهو يعلم براءته وبراءة أخيه، إنما قال لهم : إنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف ـ وهى حقيقة لا شتمة ، والله هو العالم بحقيقة ما تقولون ، وأراد بذلك قطع الجدل فى الاتهام الذى أطلقوه ، ولا دخل له بالموضوع .

وقال الفخر الرازى فى قوله تعالى :﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ : أى أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه فى الجب ، ثم قلتم لأبيكم إن الذئب أكله وأنتم كاذبون ، ثم بعتموه بعشرين درهمًا ، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة .

ويمضى السياق وقد عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه ؛ عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم وتذكروا العهد الذى أخذوه على أنفسهم ، فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى الشيخ الكبير ، ويعرضون أن يأخذ بدله واحداً منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه ، ويستعينون فى رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يرفع الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده درجات فى العلم .

٢ ـ مدلول الدين يعنى الدينونة لله فى كل شؤون الحياة .

٣ ـ جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، وما فيه الصلاح واستخراج الحقوق .

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ
ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
٢٤٥

معانى الكلمات :

معاذ الله : نعوذ بالله معاذا ونعتصم به .

استيأسوا منه : يئسوا من إجابته .

خلصوا نجيا: انفردوا متناجين متشاورين .

فرطتم : قصرتم .

يا أسفى : يا حزنى الشديد .

ابيضت عيناه : أصابتها غشاوة فابيضتا .

كظيم : ممتلئ من الغيظ .

حرضا : تصير مريضاً مقتربا من الهلاك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أمر المناجاة بين إخوة يوسف وما آل إليه .

٢ ـ أن نعلم أن القلب المؤمن مهما يُصب فله أمل لا ينقطع فى الله عز وجل .

٣ ـ أن ندرك قيمة الإيمان بالله عز وجل .

المحتوى التربوى :

يخبر السياق بأن يوسف عليه السلام رفض عرض إخوته من أخذ أحدهم بدلا منه ، واستعاذ بالله أن يأخذ إلا من وجد المتاع عنده ، دون زيادة فى اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه ، وما نريد أن نكون ظالمين ، وكانت هى الكلمة الأخيرة فى الموقف ، وعرفوا ألا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج ، أمام أبيهم حين يرجعون .

يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير ، فانصرفوا من عنده ، وعقدوا مجلسا يتشاورون فيه ويتناجون ، والسياق لا يكشف أقوالهم جميعاً ، إنما يثبت آخرها الذى يكشف عما انتهوا إليه ؛ فكبيرهم يذكرهم بالعهد المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم فى يوسف من قبل ،

ويقرن هذه إلى تلك ، ثم يرتب عليهما قراره الجازم : ألا يبرح مصر ، وألا يواجه أباه ، إلا أن يأذن له أبوه ، أو يقضى الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع .

قال أبو السعود : « وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوذ بالله لما طلبوه ، الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويعاذ بالله عز وجل منه ، ومن تسميته ظلما » .

ويمضى السياق فيخبر عن كبيرهم أنه طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق فأخذ بما سرق ، ذلك ما علموه شهدوا به ، أما إن كان بريئا ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب ، كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث ، فذلك كان غيبا بالنسبة إليهم ، وما هم بحافظين للغيب وإن كان فى شك من قولهم فليسأل أهل القرية التى كانوا فيها ، وليسأل القافلة التى كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة فى السنين العجاف .

واستنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر ، وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به ، ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به فى مواقع الخلاف .

ويطوى السياق الطريق بهم حتى يقفهم فى مشهد أمام أبيهم المفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع فلا نسمع إلا رده قصيراً سريعاً ، شجيا وجيعا ، ولكنَّ وراءه أملا لم ينقطع فى الله أن يرد عليه ولديه ، وإنه لأمل عجيب فى ذلك القلب الوجيع ، ويقول الكلمة ذاتها يوم فقد يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ، ولكنه فى هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه ، فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك ، فالله تعالى هو الذى يعلم حاله، ويعلم ما وراء الأحداث والامتحانات،ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج .

يقول صاحب الظلال : « هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء فى الله والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته ، ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار » .

ويأتى السياق بالصورة المؤثرة للوالد المفجوع ، يحس أنه منفرد بهمه ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التى حوله ولا تجاوبه ، فينفرد فى معزل ، يندب فجيعته فى ولده الحبيب .. يوسف .. الذى لم ينسه ، ولم تهوّن من مصيبته السنون ، والذى تذكره به نكبته الجديدة فى أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل ، ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنا وكمدا .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : كيف جاز لنبى الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ قلت : الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره ، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال : « إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون » .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

ويخبر السياق عن قولة أبناء يعقوب لأبيهم : تالله تظل تذكر يوسف ، ويهدك الحزن عليه حتى تذوب حزنا أو تهلك أسى بلا جدوى ، فيوسف ميؤوس منه قد ذهب ولن يعود .

ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لا يشكو لأحد من خلقه ، وهو على صلة بربه غير صلتهم ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون .

يقول صاحب الظلال : « وفى هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيه ، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل فى وجه هذا الواقع الثقيل ، إن هذا كله لا يؤثر شيئاً فى شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور وهذه قيمة الإيمان بالله » .

قال الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير: فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ « هذه الجملة تحوى فى نفسه كل الرجاء الذى يرجوه والأمل الذى يأمله ، وفيه دلالة على أنه يعلم أن الله كاشف كربه ، مزيل همه ، وهو من علم الله تعالى ، لا من علم أحد ، يعلمه بالإلهام أولاً ، وبرجائه فى الله ثانياً ، وبرؤيا يوسف الصادقة ثالثاً ، ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين ، وتأويل الرؤيا أن يكون فى ظل يوسف ، وهو فى عز مكين ، وإن ذلك واقع لا محالة . وقد بنى على هذا الأمل ، وذلك الرجاء أن كلفهم بالبحث من يوسف وأخيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة الحرص على رضا الوالدين ، فرضاهما من رضا الله عز وجل .

٢ ـ أهمية الصدق فى القول ، والدفاع عن النفس بالحق ، وفضيلة الرجاء فى الله وهى من صفات الإيمان .

٣ ـ الشكوى لغير الله مذلة ، والشكوى لله عزة ورجاء وقوة إيمان .

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟
مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا
وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

٢٤٦

معانى الكلمات :

فتحسسوا عن يوسف : فتعرفوا من خبر يوسف .

روح الله : رحمته وفرجه .

الضر : الهزال من شدة الجوع .

ببضاعة مزجاة : بأثمان رديئة كاسدة .

آثرك : اختارك وفضلك .

لا تثريب : لا تأنيب ولا لوم .

فصلت العير : فارقت القافلة .

تفندون : تسفهونى أو تكذبونى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن المؤمن فى أنس من صلته بربه ، وفى طمأنينة من ثقته بمولاه .

٢ ـ أن نعرف أن النعمة ابتلاء كما أن الشدة ابتلاء .

٣ ـ أن نؤمن بأن الاعتراف بالخطأ فضيلة .

المحتوى التربوى :

يخبر السياق عن توجيه يعقوب عليه السلام إلى تلمس يوسف وأخيه ، وألا ييأسوا من رحمة الله فى العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائماً منظور ، فيقول لهم : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ ﴾ بحواسكم فى لطف وبصر وصبر على البحث ، ودون يأس من الله وفرجه ورحمته ، وكلمة روح فيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روْح الله الندى .

والمؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروحه ، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية ، فإنهم لا ييأسون من روْح الله ، ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق ، وإن المؤمن لفى روح من ظلال إيمانه ، وفى أنس من صلته بربه ، وفى طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو فى مضايق الشدة ومخانق الكروب .

يقول الفخر الرازى : « واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً ، والله أعلم » .

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفدت منهم النقود ، وجاؤوا ببضاعة رديئة هى الباقية لديهم يشترون بها الزاد ، يدخلون وفى حديثهم انكسار لم يعهد فى أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام ، فقالوا : يا أيها الملك القادر الممتنع ، مسنا وأهلنا الشدة من الجدب ، وجئنا بدراهم قليلة فى مقابلة ما نمتاره ، استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعا لهيبة الملك ، واستجلابا لرأفته وحنانه ، فأتمم لنا الكيل ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد، وتصدق علينا بالمسامحة وقبول ما لا يعد عوضا، والله يثيب المتصدقين أحسن المثوبة .

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى فى نفس يوسف قدرة على المضى فى تمثيل دورالعزيز ، والتخفى عنهم بحقيقة شخصيته فقد انتهت الدروس ، وجاء وقت المفاجأة الكبرى ، فإذا هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضى البعيد الذى يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله ، وقال يوسف مجيبا لهم : ما أعظم ما ارتكبتم فى يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه وكيف فرقتم بينه وبين أبيه وأخيه ، وما حملكم على هذا إلا الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه .

ورن فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته ، ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه فى سمت عزيز مصر ، والآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير ، فيسألون : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ؟ ويجيب فى مفاجأة : أنا يوسف ، ويذكرفى إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه ولا يزيد سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء .

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزى والخجل وهم يواجهونه محسنا ، إليهم وقد أساؤوا ، حليما بهم وقد جهلوا ، كريما معهم وقد وقفوا منه موقفا غير كريم ، فاعترفوا بالخطيئة ، وأقروا بالذنب، وقرروا ما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان يقابله يوسف بالصفح والعفو ، وإنهاء الموقف المخجل شيمة الرجل الكريم ، وينجح يوسف فى الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل فى الابتلاء بالشدة إنه كان من المحسنين ، فقال: لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم ، فقد انتهى الأمر من نفسى ولم تعد له جذور، والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين .

ويعلق الشيخ محمد أبو زهرة على موقف إخوة يوسف فى زهرة التفاسير قائلا : « يشتد الإحساس بالخطأ إذ أظهرت النتائج غير الحسنة ؛ ولذلك أحس الإخوة بظلم ما فعلوا : ﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ .

قالوا مقسمين على حقيقتين :

الحقيقة الأولى : أن الله آثر بالفضل والإحسان والتوفيق يوسف عليه السلام ، فقد أعطاه النجاة من الموت والرق ، وأعطاه السلطان على مصر ، خير بلاد الأرض تجاورهم ، فكان هو ملكًا عزيزا ، وهم دونه ، وأكدوا أن الله آثره ، بـ (اللام) ، و (ق) ، وبـ (القسم) .

الحقيقة الثانية : أنهم أحسوا بأنهم كانوا آثمين ؛ ولذا قالوا : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ ، ﴿ وَإِن ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، وإنه الحال والشأن كنا لخاطئين ، والخاطئ هو الواقع فى الإثم ، أو الخطيئة ، وقد أكدوا إثمهم أولاً بـ (إنْ) المخففة من الثقيلة ، ﴿ كُنَّا ﴾ الدالة على استمرار خطئهم و (لام التوكيد) فى ﴿ لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ وهذا اعتراف خطير بالذنب ، وهو أول خطوات التوبة .

قال بعض المفسرين : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا وأن نحسن إليه ، ونصفى له الود ، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا ، فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية ، وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فإننا نحرم من الثواب الذى أعده الله للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

ويحول الحديث إلى شأن آخر ، شأن أبيه الذى ابيضت عيناه من الحزن ، فهو معجل إلى تبشيره ، معجل إلى لقائه، معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن ، فأراد يوسف تبشير أبيه بحياته وتصديقه بإرسال حلة من حلله التى كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليكون فى مقابلة القميص الأول جالب الحزن وغشاوة العين ، والإلقاء على وجهه مبالغة فى تقريبه منه لما ناله من ضعف البصر ، فترجع إليه قوة بصره بانتعاش قلبه بشمه واطمئنان على سلامته ، وللمفرحات تأثير عظيم فى صحة الجسم ، وأمرهم بأن يأتوا بأهليهم أجمعين .

ولما خرجت العير من مصر قال أبوهم : إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفولوا شيخ خرف لصدقتهم معى ما أجده من ريح الغائب البعيد يقول القاسمى : « كناية عن تحقق وجوده بما ألقى الله فى روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته ، وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى بنيه عن الاستيئاس من روح الله ، وإذا دنا أجل الضراء وأخذت تهب نسائم الفرج حاملة عرْفَ السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته، واستنارت بصيرته، فيكاد أن يلمس فى نهاية الشدة زهرَ الفرج .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عدم اليأس من رحمة الله ، ومحاولات البحث المتكررة عما نفقده من أشياء أو أشخاص .

٢ ـ طاعة الوالدين عبادة لله ، ورقة يوسف عليه السلام وشفقته على أبيه وإخوته .

٣ ـ التقوى والصبر من أسباب النجاح ورفع الدرجات ، والرجوع إلى الحق فضيلة .

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ
أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ
يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ
أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ
لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا
رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ
رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي
مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ
نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

٢٤٧

معانى الكلمات :

ارتد : رجع وصار .

آوى : ضم .

العرش : سرير الملك .

تأويل : تفسير .

نزغ : أفسد وأغرى .

فاطر : يا مبدع ومخترع .

أجمعوا أمرهم: عزموا على الكيد ليوسف .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التبشير بالخير عنوان حياة المسلم وخطواته .

٢ ـ أن نعرف كيف يكون لقاء الأحبة .

٣ ـ أن نؤمن أن رؤيا الأنبياء حق .

المحتوى التربوى :

تقع المفاجأة ، مفاجأة القميص ، وهو دليل على يوسف وقرب لقياه ، ومفاجأة ارتداد البصر بعدما ابيضت عيناه ، وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه ، تلك التى حدثهم بها من قبل فلم يفهموه ، فقال : أعلم أن الله سيرده إلىَّ، وعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له ، وطلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويسأل له المغفرة وعدهم بذلك . قال المهايمى : « صرحوا بالذنوب دون الله لمزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره ، وصرح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التى ربّى بها الكل » .

وفى هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة فى الدنيا ، وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلبا من غيره ، أو أنه أفضل وأقرب للإجابة مما عداه .

ويخبر تعالى عن ورود يعقوب على يوسف عليهما السلام وقدومه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف ﷺ باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبى الله يعقوب ﷺ ، ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه وهو الأشبه ، والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم لملتقاه خارج البلد ، وبإيواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما فى مركبه .

قالوا : وعنى بأبويه والده وخالته وكانت أمه قد ماتت قديما وهى نفساء بأخيه بنيامين ، وتنزيل الخالة منزلة الأم، بكونها مثلها فى زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب .

يقول صاحب الظلال : « ويا له من مشهد ! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام ، وبعد اليأس والقنوط ، وبعد الألم والضيق ، وبعد الامتحان والابتلاء ، وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد واللهف الظامئ الشديد ، يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع ، ويا له من مشهد ختامى موصول بمطلع القصة ، ذلك فى ضمير الغيب ، وهذا فى واقع الحياة ، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه » .

قال بعض اليمانيين : « يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه على حسن التعظيم باللقاء وكذا يأتى مثله فى التشييع ، ومنه ما روى فى تشييع الضيف .. ويستدل مما روى أن رفعهما على العرش ـ وهو السرير الرفيع ـ جواز اتخاذه ، ورفع الغير تعظيما للمرفوع ، ويستدل من قوله : ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدينة ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية .. وفى الحديث : « من بدا جفا » أى : من حل بالبادية ، وفى آخر : « إن الجفا والقسوة فى الفدادين » ففى هذا دليل على حسن النقلة من البوادى إلى المدن » .

ويذكر السياق قول يوسف ﷺ : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ أى : من القحط وأصناف المكاره ، وأجلس أبويه معه على سرير ملكه تكريما لهما، وسجد له أبوه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشرـ تحية وتكرمة له ، وكان السجود عندهم للكبير يجرى مجرى التحية عندهم .

ويتذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه فى سجود إخوته له ـ وقد رفع أبويه على السرير الذى يجلس عليه ـ كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين ، قد جعلها الله صدقا مطابقا للواقع فى الحس ، ويذكر نعمة الله عليه وقد أحسن به إذ نجاه من العبودية ، وجعل الملك مطيعا له مفوضا إليه خزائن الأرض ، وفى الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، وفخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر ، وفيه إشارة إلى النعمة فى الانطلاق من الحبس .

ويذكر يوسف عليه السلام من نعمة ربه أنه جاء بهم من البادية وقد كانوا أصحاب مواش من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى بالحسد ، والنعمة بعد البلاء أحسن موقعا ، ويقول عليه السلام : إن ربى لطيف التدبير والرفق بى ، وهو العليم بوجوه المصالح والحكيم فى أفعاله وأقضيته .

ويتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر ، كل دعوته وهو فى أبهة السلطان ، وفى فرحة تحقيق الأحلام ـ أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين ، بعد أن أتاه المكانة والسلطان والمال وذلك من نعمة الدنيا ، وعلمه تأويل الأحاديث بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها وذلك من نعمة العلم .

وهكذا يتوارى كل شىء ويبدو مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه .

وهذه القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بعث إليهم ، بل من الغيب الذى لا يعلموه ، ويقول الله عز وجل لرسوله ﷺ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيبا بالقياس إليك ، وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم ، وهم يمكرون ذلك المكر الذى تحدثت عنه القصة فى مواضعه، ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحى وإيحاء القصص ، واللفتات واللمسات التى تحرك القلوب أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

يقول الشيخ أبو زهرة : نبأ يوسف تسلية لابن عمه محمد ﷺ يتسلى به إذ يرجو النصر ، وإن كان الشرك هو الظاهر ، عفهذا غلام ملقى فى الجب ثم يباع ويشترى ، وتنكشف الأمور بعد سجنه عن ملك عادل يسوس أخصب أرض الشرق نماء وثروة ، إن من يحكم الأمور بتدبيرها ليس ببعيد عليه أن يخرجك من وسط بأس قومك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قدرة الله تعالى لا يعجزها شىء، والأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله بل هو من شروطه .

٢ ـ الاعتراف بالخطأ والاستغفار من الذنب .

٣ ـ طلب الدعاء من الوالدين ، واستجابة الله تعالى لدعاء الوالدين لأبنائهما .

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ
سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾
٢٤٨

معانى الكلمات :

غاشية : عقوبة تغشاهم وتحيط بهم .

بغتة : فجأة .

بصيرة : حجة واضحة .

استيأس الرسل : يئسوا من النصر لطول المدة .

بأسنا : عذابنا .

عبرة : عظة وتذكرة .

يفترى : يختلق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حال الناس مع آيات الله .

٢ ـ أن نتعرف على سنة الله فى رسالاته .

٣ ـ أن نتعلم بعض العبر من إيراد القصص القرآنى .

المحتوى التربوى :

لقد كان الرسول ﷺ حريصا على إيمان قومه ، رغبة فى إيصال الخير الذى جاء به إليهم ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة ، ولكن الله العليم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ، ينهى إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ؛ لأنهم يمرون على الآيات الكثيرة معرضين ، فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة فى الآفاق ، وإنك لغنى عن إيمانهم فما تطلب منهم أجراً على الهداية ، وإن شأنهم فى الإعراض عنها لعجيب ، وهى تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل ، تذكرهم بآيات الله وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم وهى مبذولة للعالمين .

والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة فى تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر فى السموات وفى الأرض ، يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف

النهار وهى ناطقة تكاد تدعو الناس إليها ، ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ، ويمرون عليها ولا يلتفتون إليها ، لذلك لا يؤمن الأكثرون .

وما المراد بالناس هنا ؟ أراد بهم العرب قبل ظهور الإسلام أم الناس أجمعون ؟ لا مانع من إرادة أحد العرضين أو إرادتها معا بمعنى شمول الكلمة لكل ما تدل عليه من ناس : عرب وعجم .

وحتى الذين يؤمنون كثير منهم يتدسس الشرك إلى قلوبهم ، فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفى عن القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية ، وتدل الآية على النعى عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره ، فإنها تشير إلى ما يتخلل الأفئدة ، وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفى الذى لا يشعر صاحبه به غالبا ، والرياء كله شرك ، ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقا كما يحب الله .

وما الذى ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة فى صفحات الوجود ، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التى لا يسألون عليها أجراً ؟ ماذا ينتظرون ؟ أيأمن هؤلاء عاقبة هذه الغفلة ، فإن عذاب الله الذى لا يعلم موعده أحد ، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تشملهم وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون .

والدعوة إلى الإيمان والتوحيد هى طريق محمد ﷺ يدعو إلى دين الله وتوحيده ومعرفته بصفات كماله ، ونعوت جلاله بالحجة الواضحة الغير عمياء ، وسيرة أتباعه ﷺ الدعوة إلى الله، ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعاليمه ، وقال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات وذكر الثواب والعقاب على الإحسان والإساءة ، ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها ، ويزيد بيانا للأمور التى يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حين يسأل عن شيء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال ، والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين علما وعملا ، فلا ينبغى للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعم الهلاك ، ويعظم البلاء .

ويلفت السياق إلى سنة الله فى رسالاته ، وإلى بعض آيات الله فى الأرض من مصائر السابقين ، ومحمد ﷺ ليس بدعا من الرسل ، ورسالاته ليست بدعا من الرسالات ، وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة فى الأرض ، والنظر فى آثار الغابرين يهز القلوب حتى قلوب المتجبرين ، ولحظات الاسترجاع الخيالى لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم ، وتصورهم أحياء يروحون فى هذه الأمكنة ويجيئون ، يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون ، ثم إذا هم ساكنون لا حس ولا حركة ، ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين

والحين ليدركوا أن مصيرهم كمصيرهم وأن سنة الله الواضحة الآثار فى آثار الغابرين ستنالهم ، وأن عاقبتهم فى هذه الأرض إلى ذهاب والدار الآخرة خير من هذه الدار التى ليس فيها قرار ، فتدبروا سنن الله فى الغابرين ؟ حتى تعقلوا فتؤثرون المتاع الباقى على المتاع القصير .

يقول صاحب الظلال : « الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف أيضًا ، ومن ثم لا تنضم إليها إلا الصفوة المختارة فى الجيل كله التى تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق بعد جهاد يطول أو يقصر ، وعندئذٍ فقط تدخل الجماهير فى دين الله أفواجًا .

ثم يصور ساعات الحرج القاسية فى حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التى يتحقق فيها وعد الله وتمضى فيها سنته التى لا تتخلف ولا تحيد ، إنها صورة ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق فى حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود ، وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل فى قوته ، إنها ساعات حرجة والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر ، والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم فى هذه الأرض ، وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل ، أى كذبتهم الرسل فى أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه ، وهى سنة الله فى الدعوات ، لابد من الشدائد ، ولابد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة ، ثم يجىء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التى يتعلق بها الناس ، ولا يرد عذاب الله عن القوم الكافرين إذا نزل بهم .وفى قصة يوسف ألوان من الشدائد فى الجب وفى بيت العزيز وفى السجن ، وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس ، ثم كانت العاقبة خيرًا للذين اتقوا ، وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب ، فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثا مفترى ، فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة .

وفى محاسن التأويل : تأمل هذه القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معوّل عليها ، فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق ، وحجج عقلية ، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جيلة تلذ العقلاء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويا :

١ ـ الله عز وجل أغنى الشركاء عن الشرك وهو واحد لا شريك له .

٢ ـ الدعوة إلى الله طريقة الرسول ﷺ وسيرة أتباعه .

٣ ـ فى قصص القرآن تسلية لأصحاب الدعوات ، وتثبيت للقلوب ، وعظة لمن يتعظ .